■ الدراسة الثالثة

المباحثات السورية – الإسرائيلية ... تغييرات في المعركة الاستراتيجية الإقليمية

بقلم: شلما بارومر

تجددت المباحثات و الاتصالات بين الجانبين الإسرائيلي والسوري ، في عام ٢٠٠٨ ، وربما تعود هذه المباحثات إلى الرئيس السوري ، بشار الأسد نفسه ، ورغبته في تجديد قناة الاتصالات مع إسرائيل ، بعد سنوات عجاف من العلاقات بين الطرفين السوري والإسرائيلي ، وبعد تولي إيهود أولمرت ، مقاليد الأمور ، في مارس ٢٠٠٦ ، بعد دخول أريئيل شارون في غيبوبة كاملة ، منذ نهاية عام ٢٠٠٥ ، ربما فضَّل الدخول في قناة مباحثات ومفاوضات مع الطرف الفلسطيني على حساب القناة السورية ، التي وجَّه لها كتفًا ما ، أو لم يلتفت لها بمعنى أدق ، رغم استمرار اقتراحات دمشق بتجديد المفاوضات مع إسرائيل .

التغييرات في الموقف الإسرائيلي تجاه القناة السورية ، نبع أو نشأ من التطورات الإقليمية ، التي جرت على المسار السوري – اللبناني ، وبعد سيطرة حماس على قطاع غزة ، في يونيو ٢٠٠٧ ، حيث اتضحت الصورة بشكل كبير من أن إسرائيل كانت تنتهج نهجًا أحادي الجانب ، وخاصة في الفترة التي تلت الانسحاب الأحادي الجانب من قطاع غزة ، في أغسطس ٢٠٠٥ ، وما ترتب عليها من نتائج سلبية على المجتمع الإسرائيلي من إطلاق صواريخ ، وقذائف على الجنوب الإسرائيلي من قطاع غزة ، وربما الانسحاب من الجنوب اللبناني كان أحادي الجانب، وتسبب في إطلاق نيران على الشمال الإسرائيلي ،أيضًا . ما يعني أن

الانسحاب الأحادي الجانب كان قرارًا خاطئًا من قبل المسئولين الإسرائيليين ، واشتعال الموقف اللبناني - السوري ، والهدوء المستمر بطول جبهة الجولان كان دافعًا قويًا لاستنتاج أن الانسحاب الأحادي الجانب كان أمرًا خاطئًا ، لأن المواجهات بين إسرائيل وحزب الله اشتعلت ، في عام ٢٠٠٦ ، وستستمر هذه المواجهات طالما أن حزب الله يستكمل قواته وعتاده العسكري ، فضلاً عن أن الحزب كبّد الشمال الإسرائيلي خسائر فادحة في الأرواح والمعدات .

الجبهة السورية - اللبنانية قويت بعد الحرب اللبنانية الثانية ٢٠٠٦ ، وارتفع موقف الرئيس السوري ، بشار الأسد ، أمام إسرائيل لأنه يتبع التيار الراديكالي ، كما أن جبهة الجولان كانت تحمل دلالات عسكرية معينة ، فضلاً عن أن الرئيس الأسد وضع إسرائيل أمام خيارين ، لا ثالث لهما ، الأول تجديد المفاوضات وإقامة سلام بين الطرفين، أو تحرير هضبة الجولان من قبضة الجيش الإسرائيلي ، فكان من الطبيعي دخول إسرائيل في مفاوضات مع دمشق .

من بين نتائج حرب لبنان الثانية ، دخول سوريا ولبنان في المعركة الكبيرة بين إسرائيل وإيران ، واعتبارهما جزء من هذه المعركة ، لأنه في عيون الإسرائيليين بوجه عام ، كانت حرب لبنان الثانية، حرب بالوكالة عن إيران ، حيث حارب حزب الله بالنيابة عن إيران ، فقد كان الذراع الإيرانية العسكرية القريبة أمام إسرائيل ، فهو الحزب الذي كان يعتمد على البرنامج النووي الإيراني ، والقدرات التقنية ، والتكنولوجية الإيرانية في موقفه الصارم والحازم أمام الجيش الإسرائيلي ، أثناء حرب لبنان الثانية، ما يعني أن إيران باتت قوة كبيرة في منطقة الشرق الأوسط ، ومسيطرة بالفعل على مقاليد الأمور في بعض الدول العربية .

رغم هذا التخوف ، لكن مسألة انفجار الوضع عسكريًا مع سوريا ، كان أمرًا

مستبعدًا ، وتيقنت إسرائيل أنه لا نية لسوريا لتفجير الأوضاع عسكريًا معها ، لكن لفسيفساء اللبنانية ، وانقساماتها المستمرة ما بين أكثر من تيار وفصيل ، ربما يفجر هذا الوضع مرة أخرى ، وفي أي لحظة ، كما أن سوريا وحزب الله يتهمان الجيش الإسرائيلي بأنه يتحرش بهما عسكريًا من آن لآخر، رغم أنهما يدعمان موقفهما العسكري والأمني بشكل كبير ، لكن دفاع إسرائيل كان جاهزًا بأن حزب الله يريد في الغالب اختطاف جنود إسرائيليين آخرين ، على غرار ما جرى مطلع الحرب اللبنانية ٢٠٠٦ ، لكن علينا أن نشهد بأن منطقة الشمال الإسرائيلي قد شهدت هدوءًا كبيرًا خلال العامين الماضين ، وتحديدًا بعيد الانتهاء من الحرب ، ووقف النار بين الطرفين.

إضافة إلى هذه النتائج السابقة الذكر ، فإن سوريا تيقنت ، تمامًا ، من خلال نتائج الحرب على لبنان ، أنه يمكن تلقين الجيش الإسرائيلي درسًا عسكريًا كبيرًا ، و لذلك فهي تدعم نفسها عسكريًا ، وتقوى موقفها العسكري ، وتزيد من آلاتها العسكرية بمرور الوقت ، وتحاول الحفاظ على قوة الردع أمام إسرائيل ، كما أن السوريين يدركون جيدًا أن إسرائيل لديها تأكيد بأنه في حال القيام بهجوم عسكري واسع على المنشآت النووية الإيرانية ، فإن السوريين سيساندون حليفتهم طهران بالهجوم على الجيش الإسرائيلي في الشمال الإسرائيلي ، للحفاظ على التحالف العسكري بين الجانبين الإيراني والسوري ، و إسرائيل من جانبها ، لديها معلومات مؤكدة بأن حزب الله سيقوم بالرد على اغتيال المسئول بالحزب عماد مغنيه ، لأن السوريين اتهموا مباشرة باغتياله في دمشق ، حتى لا يتردد أن إسرائيل وراء الحادث الأليم ، كما أن حزب الله لن يقف مكتوفي الأيدي أمام أي هجوم إسرائيلي ، أو أمريكي على المنشآت النووية الإيرانية، وإسرائيل تدرك ذلك جيدًا.

ربما تحمل هذه التطورات على الساحتين السورية واللبنانية مفاتيح التحول الإسرائيلي نحو سوريا ، وتوجهها صوب الاتصالات مع السوريين ، حتى يتم تفكيك الحلف الاستراتيجي بين سوريا ، وإيران ، وحلف حزب الله مع إيران ، أو الحلف التالي : إيران ، وسوريا ، وحزب الله ، وحماس ، على اعتبار خروج سوريا من هذا الحلف بدخولها في قنوات اتصال مع إسرائيل ، حتى أن إسرائيل استجابت لشروط سوريا في فتح قناة اتصال معها بعد الانتهاء من الحرب اللبنانية الثانية ، غير أن قرار رئيس الحكومة الإسرائيلية السابق ، إيهود أولمرت ، كان نابعًا من محددات سياسية داخلية ، وربما كان نابعًا بالأساس من نتائج الحرب على لبنان ، لكن من الصعب توصيل هذه المعلومة للجمهور ، أو للرأي العام الإسرائيلي من أن بداية أو سبب دخول إسرائيل مع سوريا في مفاوضات أو اتصالات ، يعود إلى تداعيات ونتائج الحرب مع لبنان ، أو أن المفاوضات ستبدأ من حيث ما انتهت إليه!

بدأت الاتصالات بين الجانبين لإسرائيلي والسوري ، في مايو ٢٠٠٨ ، بوساطة تركية ، والتي استهلت ببدايات ضعيفة ، أو قليلة واستمرت في الدعم حتى وصلت إلى اتصالات على مستوى عال من مسئولي الطرفين ، وتوقفت ، تمامًا ، هذه الاتصالات بعد اندلاع الحرب الإسرائيلية على غزة ، كما أنها لم تجدد بعد إجراء الانتخابات الإسرائيلية العامة ، في فبراير من العام الجاري . و يجب الإشارة إلى أن الجمهور الإسرائيلي كان متفاوتًا أو متباينًا حيال الاتصالات مع السوريين ، حتى أن نسبة كبيرة منهم قالوا انه إذا تم توقيع اتفاق مع دمشق ، فإنه على إسرائيل تقديم تنازلات للسوريين ، ويعني ذلك الانسحاب من هضبة الجولان ، يقابله بالمثل تقديم تنازلات من قبل الطرف السوري ، أيضًا ، لكن الحقيقة أن هضبة الجولان تعتبر ظهير استراتيجي ، أو ذخر استراتيجي مهم لسكان الجولان ومستوطنيها ،

ولإسرائيل بوجه عام ، والواضح بعد ذلك أنه في حال توقيع اتفاق مع إسرائيل ، فإن سوريا لا تريد ، أو لا ترغب في قطع علاقتها الاستراتيجية بإيران أو حزب الله ، وأكثر من ذلك أن التهديدات أمام إسرائيل ستزيد ، مع هذا فإن هناك رغبة داخل الحكومة لتجديد الاتصالات مع السوريين ، وعلى العموم ، من الجدير بمكان أن فتح قنوات اتصال مع سوريا ، وتجديدها ، وتوقيع اتفاق مع السوريين سيعمل على تفكيك العلاقة مع إيران ، أو على الأقل سيحد من نفوذ إيران في سوريا ،ويخفف من حدة التهديدات الإيرانية ، وسيتغير الحال مع لبنان ، أيضًا.

لابد من تقديم تنازلات إسرائيلية للقناة السورية ، حتى يمكن توقيع اتفاق مع دمشق ، رغم اعتراضات بعض الدول الغربية ، لكن هناك تيار إسرائيلي يرغب في توقيع اتفاق سلام مع سوريا ، رغم تأييد الأخيرة لتيارات مختلفة ، ومتباينة داخل لبنان كما أنها ما تزال تؤيد تيارات وفصائل فلسطينية مقاومة تتخذ من دمشق مقرًا لها ، فضلاً عن دعم سوريا لتيارات أخرى تتخذ من الحدود السورية مدخلا للأراضي العراقية ، للانتقام من القوات الأمريكية في العراق ، والقيام بعمليات فدائية فيها ، وفي المنطقة يوجد تأييد ضعيف من قبل بعض الدول العربية لتجديد الاتصالات مع سوريا ، وإقامة معاهدة سلام بين الجانبين ، حتى يساعدها في تقليل النفوذ الإيراني في المنطقة ، وفك التحالف الإيراني - السوري ، وتحجيم المد الإيراني في الشرق الأوسط ، كما أن لبنان تسبب لها هذه الاتصالات قلقًا بالغًا ، لأنها تعتبر توقيع اتفاق سلام بين الجانبين السوري والإسرائيلي سيكون على حسابها بالقطع ، فبعض الدول العربية ترى أن إسرائيل ستنشغل بالقناة السورية على حساب الملف والقضية الفلسطينية ، وتعتقد أنه من الأجدى لإسرائيل الاهتمام بالقضية الفلسطينية ، ومن بعدها الملف السوري .

كان للولايات المتحدة الأمريكية ثمة تعليقات وأراء كثيرة حيال قناة الاتصالات الإسرائيلية - السورية ، لان الإدارة الأمريكية كانت تريد فك الارتباط السوري - الإيراني بأي شكل ، وبأي طريقة كانت ، وعلى النقيض ، فإن سوريا رأت أن هضبة الجولان ليست أمرًا مهمًا ، أو خطيرًا ، ولكن رأت أن الاتصالات مع إسرائيل ستكون البوابة أمام فتح علاقات قوية مع الغرب ، والخروج من الشرنقة التي حُبست فيها دمشق خلال السنوات الماضية ، وخاصة مع الولايات المتحدة الأمريكية ، وكذلك تجاه تحسين الوضع الاقتصادي لسوريا ، كان هدفًا مهمًا من هذه الاتصالات ، بيد أن الولايات المتحدة لابد وأن تعرف أو تطلع على الثمن الاستراتيجي التي ستدفعه إسرائيل ، مقابل الانسحاب من هضبة الجولان ، أو ما الذي ستفعله بعد الانسحاب من الجولان ، و مدى استعداد واشنطن لعدم التدخل بقوة في إدارة الاتصالات السورية - الإسرائيلية ، بوجه عام ، ربما يكون ذلك سببًا قويًا لعدم بلورة هذه الاتصالات إلى علاقات مباشرة ، أو اتصالات مباشرة بين الجانبين حتى الآن ، أو اتصالات على مستوى رفيع ومباشر.

تأجلت الاتصالات السورية - الإسرائيلية مرة أخرى ، نتيجة لدخول رئيس جديد في الولايات المتحدة الأمريكية ، وكذلك لاختيار بنيامين نتانياهو ، رئيسًا للوزراء ، في فبراير من العام ٢٠٠٩ ، وانتظار كل منهما لتوضيح رؤيته وفكره السياسي ، فالجانب الإسرائيلي يرى إنه لإنجاح الاتصالات بين الجانبين يجب أن ينسحب الجيش الإسرائيلي من هضبة الجولان ، ويعني ذلك تقديم تنازلات مؤلمة ، وعلى الجانب الأمريكي ، فإن الأمر ربما يكون مختلفًا لان الإدارة تتساءل ماذا ستقدم المفاوضات بين الجانبين للإدارة الأمريكية ؟ وما هي النتائج المحتملة بينهما ؟ وماذا يمكن للإدارة الأمريكية أن تقدمه لإنجاح هذه المفاوضات ؟ وما الفائدة

التي تعود عليها في الوقت نفسه ؟! لكن من الواضح أن فكر ورؤية الإدارة الأمريكية الجديدة سيكون مختلفًا عن الحكومة الأمريكية السابقة لجورج بوش ، ويبدو أن تقرير بيكر- هاميلتون الصادر ، في ديسمبر ٢٠٠٦ ، سيكون له الرؤية الراجحة في التأثير على هذه الاتصالات ، لكن اشتراك الولايات المتحدة الأمريكية ربما يكون رؤية ونضج جديد وإضافي لهذه الاتصالات ، كما أن تطور هذه الاتصالات ربما يساعد في معالجة الصراع العربي -الإسرائيلي ، وقضايا العراق وأفغانستان .

فتنظر الولايات المتحدة الأمريكية لهذه الاتصالات بنظرة مصلحة في المقام الأول ، من أن هذه المفاوضات ستساعد على حل قضايا مهمة وإستراتيجية في المنطقة أم لا ؟ ومدى ارتباطه بقضايا أخرى ، مثل محاربة الإرهاب « الإسلامي »، وحل الصراع العربي - الإسرائيلي، لكن هناك أناس في الإدارة الأمريكية – وربما أوباما نفسه- ترى أن الأولوية ستكون للقضية الفلسطينية ، لأنها لب الصراع العربي – الإسرائيلي ، ويمكنها بعد ذلك التطرق إلى أي محور أو قضية شرق أوسطية من بينها الاتصالات السورية – الإسرائيلية ، بمعنى أن تولي الاهتمام في المقام الأول للقضية الفلسطينية ، لذلك عيَّن اوباما السيناتور ، جورج ميتشيل ، مبعوثًا خاصًا للشرق الأوسط ، فور دخوله البيت الأبيض مباشرة .

ترجع محاولات الطرفين السوري والإسرائيلي تجاه المفاوضات بينهما إلى القرارات الاستراتيجية ، التي يتخذها كل طرف منهما تجاه الأخر ، فالجانب الإسرائيلي يريد تأجيل القناة السورية لصالح الملف الفلسطيني ، لكن الملف الفلسطيني أكثر تعقيدًا من نظيره السوري ، في حين أن الحكومة اليمينية في إسرائيل تريد تأجيل هذه القنوات الحوارية ، وإن فضلت إعطاء الأولوية للقناة السورية ،

لكن الأصوات اليمينية لا تريد دخوله في هذه المفاوضات مع السوريين ، كما أن الحكومة الإسرائيلية لا تريد الاحتكاك القوى مع الإدارة الأمريكية في هذه المرحلة ، خاصة وأن المعارك العسكرية في العراق وأفغانستان على أشدها ، و نتانياهو يرفض الانسحاب من الجولان ، وحكومته ترفض ذلك ، أيضًا، ما يعني تأخير مسار السلام السوري - الإسرائيلي ، لان إسرائيل ليست مستعدة ، تمامًا، للانسحاب من الجولان ، وإنهاء النزاع بين الطرفين .

يبد أن الوضع معقد جدًا، لأن سوريا تريد إخلاء الجولان من الإسرائيليين، في حال عودتها إليها بعد توقيع اتفاق مع الجانب الإسرائيلي، غير أن وجود تقنيات معلوماتية ومخابراتية في الجولان أمر ترفضه سوريا، وربما يعاد النظر فيه مرة أخرى، غير أن الجانب الغربي، وخاصة الأمريكي من الممكن أن يقدم مساعدات اقتصادية بعد توقيع الاتفاق بينهما، في حين أن إيران ترى أن المقابل من توقيع اتفاق سلام مع إسرائيل ، هو قطع التحالف الاستراتيجي مع دمشق ، ولذلك فهي ترفض دخول دمشق في هذه المباحثات، أو على الأقل تتحفظ عليها، ولذلك تطالب بوضع شروط مسبقة لمسار التفاوض بينهما، في حين يؤثر المسار التفاوضي على لبنان، أيضًا، لأنه سيعود بالسلب أو الإيجاب المباشر على علاقة إسرائيل بها بشكل مباشر، ما يدفع لبنان إلى الدخول في مفاوضات مشابهة مع إسرائيل، وهذه المباحثات تقوي الموقف السوري أمام الإدارة الأمريكية ، وأمام الغرب بوجه عام، ما يعني ممارسة المزيد من الضغوط على حزب الله لتفكيك سلاحه، وتقليل الاحتكاكات العسكرية مع حزب الله في الشمال الإسرائيلي .

◆◆◆